الفصل الثانى

أبو الفرج الاصبهانى فى عصره

١ ــ حياة أبى الفرج الأصبهانى

أتى أصحاب التراجم على نسب أبى الفرج الأصبهانى ، وحسبنا أن نعرف ، أن اسمه على ابن الحسين بن محمد الأصبهانى ، وأن نسبه يتصل بعبد مناف ، فهو من بنى أمية ، من ولد محمد بن مروان بن الحكم .

ولد بأصبهان ، وقد أجمعوا على أن مولده كان سنة أربع وثمانين ومائتين ، ولكنهم اختلفوا فى وفاته ، فأكثرهم قال إن وفاته كانت سنة ست وخمسين وثلثمائة ، وعلى هذا يكون عمره اثنتين وسبعين سنة ؛ وبعضهم قال إنه عاش ثلاثاً وسبعين سنة . وأضافوا إلى ذلك أنه خولط فى عقله قبل أن يموت وأصابه الفالج .

نحاول أن نعرف فى هذا الفصل شيئاً من نشأته الأولى فى داره ، ومن ثقافته وأساتذته وتلاميذه ، ومن أهله الذين نشأ بينهم . فهذه أمور غامضة فى أكثر تاريخ أدبائنا ؛ على أن الذين دوّنوا ترجمة أبى الفرج الأصبهانى قد يزيد عددهم على اثنين وعشرين مؤرخاً ، ولكن للتراجم فنّاً خاصّاً ولم يتقنه فى القديم والحديث إلا قليل من الكتاب ، فعلى الكاتب فى هذا العصر أن يستخرج أكثر أحوال المؤلفين من مؤلفاتهم وهذا أمر غير يسير .

عاش أبو الفرج فى بغداد ، وقد نقل ياقوت فى معجم الأدباء عن ابن الصابئ أنّ دار أبى الفرج الأصبهانى فى بغداد كانت واقعة على دجلة فى المكان المتوسط بين درب سليمان ودرب دجلة ، وملاصقة لدار أبى الفتح البريدى . وفى الحكاية التى سننقلها فى ذكر قذارته ما يصف لنا بعض الوصف كيف كانت عيشته فى داره ، فقد كان يشكو الفأر ويأنس بالسنانير حتى

إذا لحق سنّورة قولنج كان يحقنه بيده ، وقد دلت على اهتمامه بالسنانير قصيدته فى وصف الهر ، وربما كان يجد فى صحبة الهر من الوفاء ما لا يجده فى صحبة أكثر أصحابه . وسنثبت هذه القصيدة فى فصل النماذج من آثار أبى الفرج الأصبهانى . والظاهر أنه كانت له عناية خاصة بالحيوان ، فكما وصف الهر فقد رثى ديكاً له كان يألف قربه فحزن عليه حزناً دائماً .

هل تزوج وهل كان له ولد ؟

إذا رجعنا إلى قصيدته التى يستميح فيها المهلبى قرأنا فيها الأبيات التالية [١] :

وهذا الشتاءُ كما قد ترى ... عسوفٌ علىّ قبيح الأثرْ
يغادى بصرّ [٢] من العاصفا ... ت أو دمّقٍ [٣] مثل وخز الإبرْ
وسكان دارك ممن أعو ... لُ يلقين من برده كل شرّ
فهذى تحنّ وهذى تئنّ ... وأدمع هاتيك تجرى درر [٤]
إذا ما تململن تحت الظلام ... يعالجن منك بحسن النظر
ولاحظن ربعك كالمحليـ ... ـن شامو البروق وجاء المطرْ
يؤملن عودى بما ينتظرن ... كما يرتجى آئبٌ من سفرْ

فربما كان له بنات ، وهذا كل ما نعرف من صدر أمره .

ولكنّ الغريب أن يشكو هذا الفقر على أنه — كما تبين لنا ذلك فى كلامنا على عصره — قد اتصل بأعاظم زمانه ، فى جملتهم سيف الدولة بن حمدان الذى أعطاه ألف دينار على كتاب الأغانى ، وكان من ندماء الوزير المهلبى الخصيصين به ، وكانت صحبته له قبل الوزارة وبعدها إلى أن فرق بينهما الموت ، وبلغ من اطراح الكلفة بينهما المبالغ . ثم كان كاتباً لركن الدولة حظيًّا عنده محتشماً لديه ، وكان يصنف تصانيفه ويرسلها إلى المسئولين على بلاد المغرب من بنى أمية ، وكانوا يحسنون جائزته .

---

(١) « معجم الأدباء » ج ١٣ ص ١٣٥ .
(٢) ريح صر : شديدة البرد .
(٣) الدمق : الريح والثلج .
(٤) الدرر : جمع درة وهى فى الأمطار أن يتبع بعضها بعضاً .

وإذا رجعنا إلى كتاب الأغانى استطعنا أن نستخرج من هذا الكتاب الجليل أنماطاً من ثقافة الأسرة التى نشأ فيها أبو الفرج الأصبهانى ومن طبائعه وأخلاقه .

٢ ــ نشأته

نشأ أبو الفرج فى بيت يذوق أهله الأدب ويجعلونه أحاديثهم . وقد أيدت ذلك أخبار وردت فى الأغانى[١] فمن شاء فليرجع إليها فقد كانت بين أهل أبى الفرج الأصبهانى وبين آل المزربان مودة قديمة وصهر ، وكان ابن المزربان يحدث والد أبى الفرج بشىء من الشعر على سبيل المذاكرة ومن هذا النوع كانت أحاديث عمه ووالدة عمه .

وكما نشأ فى بيت يُعنى أهله بالأدب فقد نشأ فى بيت يُعنى أهله بالغناء ، فقد جاءت فى الأغانى أخبار[٢] تدل على أن والد أبى الفرج طلب الغناء ، وأن عمته كان لها ذوق فى الغناء وفى الشعر .

فإذا كان للتربية أثر فقد يجوز أن يكون لتربية أبى الفرج الأصبهانى الأولى أثر غير قليل فى انصرافه إلى الأدب وعنايته بالغناء . فقد كان له باع فى الغناء طويل وهذا أمر يؤيده تأليفه فيه . ومن ذلك رسالته إلى بعض إخوانه فى علل النغم ، وقد ذكرها فى الأغانى[٣] . ومن ذلك دخوله فى المناظرات والمجادلات والمراسلات والمشافهات التى كانت تجرى بين أئمة المغنين ؛ وآراؤه فى هذا المعنى مبثوثة فى أضعاف كتاب الأغانى .

٣ ــ تأثره وتأثيره

وقد وسع آثار هذه التربية الأولى الأساتذة الذين تخرج عليهم أبو الفرج الأصبهانى .

---

(١) « الأغانى » ج ٢٠ ص ١٣١ .
(٢) « الأغانى » ج ٧ ص ١٣٣ .
(٣) « الأغانى » ج ٨ ص ٢٥ .

من هم هؤلاء الأساتذة ؟

روى أبو الفرج عن طائفة جليلة عاشوا بين العصرين الثالث والرابع . نعرف منهم ابن دريد وابن الأنبارى والجمحى والأخفش ونفطويه والطبرى وابن المزربان وابن قدامة واليزيدى وغيرهم من رجال اللغة والنحو والأدب والشعر والأنساب والأخبار والحديث والتفسير والتأريخ ؛ ولا شك فى أن لهؤلاء الأساتذة أثراً عظيماً فى عبقرية أبى الفرج ؛ وإذا أردنا أن نعرف فضل الأساتذة الذين حمل أبو الفرج الأصبهانى العلم عنهم فلنسمع رأيه فيهم . فقد قال فى أخبار أبى محمد يحيى بن المبارك[1] : « وآخر من بقى من علماء هذا البيت أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبى محمد ، وكان فاضلاً عالماً ثقة فيما يرويه ، منقطع القرين فى الصدق وشدة التوقى فيما ينقله ، وقد حملنا نحن عنه وكثير من طلبة العلم ورواته علماً كثيراً فسمعنا منه سماعاً جمًّا » .

هذه هى طبقة الأساتذة الذين تخرج عليهم أبو الفرج الأصبهانى ، فقد سهل علينا أن نعرف طبيعة ثقافته .

إلا أننا على الرغم من تصانيفه التى لم نطلع عليها ، ولا اطلعنا على أكثرها لا نعتمد فى كلامنا على عبقرية أبى الفرج الأصبهانى إلا على كتاب الأغانى وحده فهو يغنينا عن بقية كتبه .

وكما تخرج أبو الفرج الأصبهانى على أساتذة مشهورين فقد تخرج عليه فريق من الأدباء منهم شيخ أندلسى قدم من الأندلس لطلب العلم ولزم أبا الفرج وكان أبو الفرج يعظمه ويكرمه ويذكر ثقته ، ومنهم ابن دينار الذى قرأ عليه جميع كتاب الأغانى ، ومنهم طائفة أخرى أشار إليها الخطيب البغدادى فى تأريخه .

فأبو الفرج الأصبهانى أخذ فى الأدب وأعطى ، ومارس الأستاذية ولم يقتصر على التأليف وحده .

---

(١) « الأغانى » ج ١٨ ص ٧٣ .

٤ ـ صورته وأخلاقه

ما هى هيئة أبى الفرج ؟

هذا شىء لم يشر إليه أكثر الذين ذكروا ترجمته ، على أن أبا الفرج الأصبهانى فى أكثر تراجمه فى الأغانى قد وصف هيئة أصحابها وملابسهم ومآكلهم ومشاربهم وغير ذلك ؛ وقد نجد فى بعض مواطن من تراجمه وصف هيئة من الهيئات لا نكاد نجد مثيله فى هذه الأيام .

إلا أنهم إذا غفلوا عن ذكر هيئته فلم يغفلوا عن الإشارة إلى ملابسه وبعض أخلاقه ، فقد ذكر ياقوت فى معجم الأدباء نقلاً عن غيره أنه كان وسخاً قذراً لم يغسل له ثوباً منذ فصّله إلى أن قطّعه ؛ وكان الوزير المهلبى يحتمل له ذلك لموضعه من العلم ، وأنه كان وسخاً فى نفسه ثم فى ثوبه ونعله ، حتى إنه لم يكن ينزع دراعة إلا بعد إبلائها وتقطيعها ، ولا يعرف لشىء من ثيابه غسلاً ولا يطلب منه فى مدة بقائه عوضاً ، ورويت فى هذا المعنى قصص مختلفة منها :

قال ابن الصابئ : وحدثنى جدى أيضاً قال : قصدت أنا وأبو على الأنبارى وأبو العلاء صاعد دار أبى الفرج لقضاء حقه وتعرف خبره من شىء وجده ، وموقعها على دجلة فى المكان المتوسط بين درب سليمان ودرب دجلة ، وملاصقة لدار أبى الفتح البريدى ، وصعد بعض غلماننا لإيذانه بحضورنا ، فدقّ الباب دقّاً عنيفاً حتى ضجر من الدق وضجرنا من الصبر ، وقال : وكان له سنور أبيض يسميه يققاً ، ومن رسمه إذا قرع الباب قارع ، أن يخرج ويصيح إلى أن يتبعه غلام أبى الفرج لفتح الباب أو هو نفسه ، فلم نر السنور فى ذلك اليوم ، فأنكرنا الأمر وازددنا تشوقاً إلى معرفة الخبر ، فلما كان بعد أمد طويل صاح صائح أن « نعم » ، ثم خرج أبو الفرج ويده متلوثة بما ظننناه شيئاً كان يأكله فقلنا له : عققناك بأن قطعناك عما كان أهم من قصدنا إياك . فقال : لا والله يا سادتى ، ما كنت على ما تظنون ، إنما لحق يققاً ـ يعنى سنوره ـ قولنج ، فاحتجت إلى حقنه ، فأنا مشغول بذلك ، فلما سمعنا قوله

ورأينا الفعل فى يده ورد علينا أعظم مورد من أمره لتناهيه فى القذارة إلى ما لا غاية بعده ، وقلنا : ما يجوز أن نصعد إلى عندك فنعرفك عن استتمام ما أنت فيه ، وإنما جئناك لتعرّف خبرك ، وقد بلغنا ما أردناه . وانصرفنا .

وأضافوا إلى هذا النوع من القصص قصة أخرى تتعلق بمآكله ، فقد حدّث القاضى أبو على الحسن بن على التنوخى فى كتاب « نشوار المحاضرة » قال : ومن طريف أخبار العادات أنى كنت أرى أبا الفرج على بن الحسين الأصفهانى الكاتب نديم أبى محمد المهلبى صاحب الكتب المصنفة فى الأغانى والقيان وغير ذلك ، دائماً إذا ثقل الطعام فى معدته — وكان أكولاً نهماً — يتناول خمسة دراهم فلفلاً مدقوقاً فلاتؤذيه ولا تدمعه ، وأراه يأكل حمّصة واحدة أو يصطبغ بمرقة قدر فيها حمص فيسرهج بدنه كله عن ذلك ، وبعد ساعة أو ساعتين يفصد ، وربما فصد لذلك دفعتين ، وأسأله عن سبب ذلك فلا يكون عنده علم منه ، وقال لى غير مرة : إنه لم يدع طبيباً حاذقاً على مرور السنين إلا سأله عن سببه ، فلا يجد عنده علماً ولا دواء ، فلما كان قبل فالجه بسنوات ذهبت عنه العادة فى الحمص فصار يأكله فلا يضره وبقيت عليه عادة الفلفل .

هذه حكايات لا نستطيع دفعها إذا وقعت وإذا صح أن بعض شيوخ أبى الفرج كانوا مثله فى هذا المعنى وهم نفطويه وجحظة ، فقد يجوز أنه كان يتشبه بهم لشذوذ فى عاداته ، ولكن الذى نستغربه أن يكون أبو الفرج الأصبهانى من ندماء الوزير المهلبى وهو فى شديد تقشفه وعظيم تنطسه ، وأن يحتمل المهلبى مثل ما ذكر على مائدته ، على أنا نعرف فى عصرنا هذا عالماً من أجلّ العلماء وهو الشيخ طاهر الجزائرى قد شذّ فى أكله وشربه ولبسه عن المألوف من العادات ولم يبال بذلك وكان العظماء يحتملون ذلك منه .

وكما أشار بعض المؤرخين إلى شذوذ أبى الفرج فى أكله ولبسه فقد أشاروا إلى بعض مزاجه وأخلاقه ، فقد قالوا إن الناس فى عهده كانوا يحذرون لسانه ويتقون هجاءه ويصبرون فى مجالسه ومعاشرته ومواكلته ومشاربته على كل صعب من أمره .

ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن أبا الفرج الأصبهانى كان من الظرفاء ، فقد كان يميل إلى النوادر ، نجد الهزل مستفيضاً فى كتاب الأغانى ، وظرفه هذا هو الذى جعل الوزير المهلبى والعظماء يرغبون فى منادمته ، فمن دلائل ظرفه الخبر الآتى[1] :

« قال غرس النعمة : حدثنى أبى قال : كان أبو القاسم الجهنى القاضى — وأظنه من أهل البصرة وتقلد الحسبة بها ومنها عرف أبا محمد المهلبى وصحبه — يشتمل على آداب يتميز بها ، إلا أنه كان فاحش الكذب ، يورد من الحكايات ما لا يعلق بقبول ولا يدخل فى معقول ، وكان أبو محمد قد ألف ذلك منه وقد سلك مسلك الاحتمال ، وكنا لا نخلو من حديثه من التعجب والاستظراف والاستبعاد ، وكان ذلك لا يزيده إلا إغراقاً فى قوله وتمادياً فى فعله . فلما كان فى بعض الأيام جرى حديث النعنع وإلى أى حد يطول فقال الجهنى : فى البلد الفلانى يتشجر حتى يعمل من خشبه السلاليم ، فأغتاظ أبو الفرج الأصبهانى من ذلك وقال : نعم ، عجائب الدنيا كثيرة ، ولا يدفع مثل هذا وليس بمستبدع ، وعندى ما هو أعجب من هذا وأغرب ، وهو زوج حمام راعبى يبيض فى نيف وعشرين يوماً بيضتين فأنتزعهما من تحته وأضع مكانهما صنجة مائة وصنجة خمسين ، فإذا انتهى الحضان تفقست الصنجتان عن طست وإبريق ، أو سطل وكرنيب . فعمنا الضحك ، وفطن الجهنى لما قصده أبو الفرج من الطنز ، وانقبض عن كثير مما كان يحكيه ويتسمح فيه ، وإن لم يخل من الأيام عن الشىء بعد الشىء منه » .

من المؤسف أنا لم نطلع على كتبه كلها ولو وصلت إلينا تصانيفه لاستخرجنا من بعضها صورته ، سواء أكانت كاملة أم كانت غير كاملة ، فمن كتبه كتاب « أدب الغرباء » ، وقد نقل عنه ياقوت فى معجم الأدباء بعض الفصول التى تدل على أن أبا الفرج كان يشرب ، وعلى أنه كان فى أيام الشبيبة والصبا يألف فتى من أولاد الجند ، ولكن هذه العادة كانت فاشية فى تلك الأيام

---

(١) « معجم الأدباء » ج ١٣ ص ٢٢٣ .

فلا نستغربها ، فإن أدبنا ملآن من الأشعار التى تدل على الشرب وعلى شىء أكثر من الشرب . ولم يقتصروا على هذا كله فقد رماه بعض المؤرخين بالكذب ، فقد قال النوبختى فيه ، وهو من أهل عصره : كان أبو الفرج الأصبهانى أكذب الناس ، كان يدخل سوق الوراقين وهى عامرة بالدكاكين مملوءة بالكتب فيشترى شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها .

وإذا لم نجد سبيلاً إلى الدفاع عن أبى الفرج الأصبهانى فى اتهامه بالوساخة والقذارة وسلاطة اللسان وما شابه ذلك ، فقد نجد مثل هذه السبيل فى إنصافه فى بعض أخلاقه .

يسهل علينا أن نتهم رجلاً بالكذب ، ولكن المهم أن نأتى ببرهان على كذبه ، يسلخ صاحب الأغانى خمسين سنة فى تأليف كتابه ، ويتبع فيه الصدق وشدة التوقى على قدر الإمكان فيجهد نفسه فى البحث عن أصح الأخبار والروايات والأحاديث ، ويتبرأ فيها من كل عهدة ، ويحاسب الرواة على الأكاذيب والخطأ والخطل ، يؤاخذهم بكل تحامل وحمق وسب وشتم وتجهيل ، فيجىء أحد النقاد فيقول فيه إنه أكذب الناس ، دون أن يكلف نفسه بيان موطن من مواطن هذا الكذب ، هذا هو الكلام الذى لا يرضى به منطق ولا خلق ولا وجدان ، كان يجب على الذين نقدوا أبا الفرج ونسبوا الكذب إليه أن يأتوا بالحجة على قولهم وأن يشيروا إلى المواضع التى ظهرت عليها آثار الكذب حتى ينظر العقل فى مقادير أقوالهم ، أما أن يجازفوا بحكمهم مجازفة فهذا شىء يذهب جفاء ، إن الحجة لا تردّ إلا بالحجة ، فلا نستطيع أن نهدم بكلمة مجردة ما بناه غيرنا فى خمسين سنة ، فضلا عن أن عملاً مثل هذا العمل لا يخلو من كثير من قلة الإنصاف .

وكما نعتقد صدق أبى الفرج فى رواياته ، فقد نعتقد فيه أخلاقاً ثانية ليست أقل من الصدق . نجد فى أخلاقه كثيراً من المسامحة والإنصاف وأدب النفس وغير ذلك ، وقد نهمنا معرفة هذه الأخلاق لصلتها القوية برواياته لأن كتاب الأغانى مبنى على الروايات والأسانيد .

فمن أخلاقه أنه لا يجعل لأخلاق أهل الفن صلة بنقد فنهم ، فإذا ذكر طائفة سيئة من أخلاق بعض الشعراء فإنه يفصلها عن شعرهم ولا يجعل لها تأثيراً فى نقد هذا الشعر ، من هذا النحو رواية خبر فى كلامه على الأحوص[١] يغض من أخلاق الأحوص ؛ وبعد أن روى هذا الخبر قال :

« وليس ما جرى من ذكر الأحوص إرادة للغض منه فى شعره ، ولكنا ذكرنا من كل ما يؤثر عنه ما تعرف به حاله من تقدم وتأخر وفضيلة ونقص ، فأما تفضيله وتقدمه فى الشعر فتعالم مشهور وشعره ينبئ عن نفسه ويدل على فضله فيه وتقدمه وحسن رونقه وتهذيبه وصفائه » .

فهذا كلام غاية فى نزاهة النقد ، يكاد يكون المثل الأعلى فى هذا الباب ، وخاصة فى عصر مثل عصرنا تعود أكثر الناس فيه أن يكون حكمهم على رجل من رجال الفن مبنياً على قدر محبتهم إياه أو بعضهم له ، ينظرون إلى من قال لا إلى ما قيل ، فيطمسون الحسنات وينقرون عن السيئات .

وقد نجد مثل نزاهة هذه الأخلاق فى مواطن كثيرة من كتاب الأغانى ، نكتفى بالإشارة إليها تفادياً من التطويل . من ذلك كلامه على أبى تمام ، ودفاعه عن ابن المعتز ، وإنصافه لكعب بن الأشرف على يهوديته .

هذا أكثر ما نعرفه عن حياة كاتب سنجد أنه انفرد بنوع من الموضوعات لم ينفرد به غيره من الكتاب .

٥ ــ مشاركته فى أحوال عصره

ا ــ التشيع والقومية

اتصل أبو الفرج الأصبهانى بملوك ووزراء كانت نزعاتهم متباينة ، فساير دولة أصلها فارسى ومذهبها الشيعة وهم بنو بويه ، وملكاً نزعته قومية وهو سيف الدولة ، ودولة فى المغرب نزعتها أموية وهم بنو أمية ، فمن بدائه الأمور أن تظهر

---

(١) « الأغانى » ج ١٥ ص ٩٦ .

على تصانيفه آثار العصر الذى عاش فيه، فى كتاب « مقاتل الطالبيين » ظهر ميل أبى الفرج إلى الشيعة ، وفى كتب أنساب بنى عبد شمس وبنى شيبان والمهالبة وبنى تغلب ظهر ميله إلى العرب ، وإن كنا لم نطلع على هذه الكتب ، ولكن عناوينها تدل على أن فيها روحاً قومية . ولا شك فى أن التصانيف التى كان يرسلها إلى المستولين على بلاد المغرب من بنى أمية كانت تشتمل على روح أموية ، وفى كتاب الأغانى ظهر ميله إلى تصوير لهو الخلفاء وتبذيرهم ، لا بل إلى تصوير الحياة بأجمعها ، وهكذا نجد أن أبا الفرج الأصبهانى قد ساهم فى عصره من أكثر نواحيه .

إلا أن أبا الفرج على الرغم من تشيعه لم ينحرف عن الحق فى هذا التشيع . وإذا كنت أتعرض لتشيع أبى الفرج فى مثل هذا المقام فإنما أتعرض له للبحث عن آثار تشيعه وعواقبه فى أخباره ورواياته وأحاديثه وما شابه ذلك ، فإن الذين ينسبون التشيع إليه لا يقتصرون على مشايعته لعلى رضى الله تعالى عنه أو لذريته ، وإنما يريدون بذلك أنه غير ثقة فى الأخبار التى يرويها عن الذين انحرفوا عن على وحزبه وقاتلوهم كبنى أمية مثلاً أو كبنى العباس الذين قاتلوا الطالبيين .

فإذا كان هذا هو المراد بتشيع أبى الفرج وكنت لا أجد فى روايته أثر التعصب فى هذا التشيع فقد لزمنى أن أفتش فى كتاب الأغانى عن المواطن التى ظهر فيها تجرد أبى الفرج فى نقل أخبار طائفة من خلفاء بنى أمية ، ولا سيما يزيد بن معاوية ، فإن تشيع أبى الفرج يقتضيه التحامل عليه والغضّ منه ومن حسناته ، أو الغلو فى ذكر سيئاته ، فإذا كان أبو الفرج متجرداً فى رواياته المتعلقة ببعض خلفاء بنى أمية فلا شك فى أن تشيعه الذى نسب إليه لم يؤثر فى هذه الروايات ، ولا طوى من حسنات المنحرفين عن على ، ولا زوّر سيئات عليهم . معنى هذا كله أنه كان ثقة فى أخباره يحاسب ضميره ووجدانه ، يقول الحق على جماعته وعلى عدوه على السواء .

لقد اطلعت على أخبار رواها أبو الفرج فى كتاب الأغانى لا تدل على شىء من التعصب على خصوم على ، وهذه الأخبار حجة لنزاهته وإنصافه فى التشيع.

كيف ننسب إلى التعصب فى التشيع رجلاً يروى عن عبيد الله بن زياد أحسن الأخبار[١] التى تصور عقله الراجح ورفقه بالرعية وتفصح عن فضائل أبيه زياد ؟ أم كيف ننسب إلى التعصب فى التشيع رجلاً يروى عن بنى أمية كلاماً يضعهم فى أرفع المواضع[٢] .

ولم يقتصر أبو الفرج على الإشارة إلى محاسن عبيد الله بن زياد والإشادة بمكارم أخلاق بنى أمية على وجه عام ، وإنما خصّص بعد التعميم فأشار إلى فضل يزيد بن معاوية[٣] .

وكما روى أخباراً تتصل بمحاسن يزيد بن معاوية فقد روى أخباراً تتصل بمحاسن هشام ، فقال إن هشاماً لم يكن يشرب ولا يسقى أحداً بحضرته مسكراً ، وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه[٤] .

وقد يطول بى الاستشهاد فى هذا المعنى . فلو كان أبو الفرج متعصباً فى تشيعه خالياً من روح النزاهة والتجرد لطمس مثل هذه الأخبار فى كتاب الأغانى . ولكنه كان رجلا منصفاً يذكر محاسن بنى أمية ولا يغفل فى بعض الأحايين عن الإشارة إلى آراء الناس السيئة فيهم ، وأعظم من هذا كله فقد روى فى كتاب الأغانى خبراً يسىء إلى سيدنا على أكثر مما يحسن إليه .

اتصل أبو الفتح الأصبهانى بعصره من ناحية التشيع فساير دولة فى بغداد شعارها التشيع ، وألف كتابه « مقاتل الطالبيين » ولكنه لم يتعصب فى تشيعه ولم ينحرف عن الحق فى رواياته وحكاياته وأحاديثه[٥] .

وكذلك ساير دولة نزعتها فارسية ولكنه لم يكن شعوبيًّا ، فإن سيف الدولة الذى أعطاه ألف دينار على كتاب الأغانى كانت العروبة شعاره ، يدل على ذلك شعر الشعراء الذين أحاطوا به وعلى رأسهم المتنبئ ، فإن كلمة العرب لا تكاد تخلو قصائدهم منها ، وكتبه التى ألفها فى بعض أنساب العرب تدل على هذه النزعة كأنساب بنى شيبان وغيرهم ممن تقدم ذكرهم .

---

(١) « الأغانى » ج ٢١ ص ٢٥ .
(٢) « الأغانى » ج ٢١ ص ٩٤ .
(٣) « الأغانى » ج ٧ ص ١٨ .
(٤) « الأغانى » ج ٥ ص ١٥٩ .
(٥) « الأغانى » ج ١١ ص ٢٩ .

لقد نقل أبو الفرج فى كتاب الأغانى كثيراً من أخبار البرامكة ، وهى تدل على فرط كرمهم وأدب نفوسهم ، وأى ذنب له فى تدوين أخبار تدلّ على فرط الجود وأدب الخلق ؟ وكذلك ذكر عن عبد الله بن طاهر قصة إذا دلّت على شىء فإنها تدل على عفو صدر عن نفس كريمة وخلق سمح .

وكذلك نقل كلاماً لحسان بن ثابت فيه شىء من الموازنة بين شرب جبلة ابن الأيهم وبين شرب جماعة من المسلمين ، أفيلام أبو الفرج إذا أشاد حسان بحلم جبلة فى الشرب وبعده عن الخنى والعربدة وإذا ندّد بشرب مسلم من المسلمين لا يشرب ثلاثة أقداح حتى يصاحب صاحبته ويفارقها وتضرب فيه كما تضرب غرائب الإبل ؟ !

إذا كان أبو الفرج شعوبيًّا فلماذا روى خبر وقعة ذى قار فى كتاب الأغانى[1] ، التى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبى نُصروا .

عاش أبو الفرج فى عصر استفاض فيه التشيع والشعوبية ولكنه كان مجرداً فى تشيعه مخلصاً فى عروبته فقد استطاع أن يتملص من آثار هذا العصر فى تصانيفه وأن يترفع عما لم يترفع عنه غيره .

ب — النقد والأدب :

وإذا استفاضت حرية الحياة فى عصره فقد ظهرت آثار هذه الحرية على كتاب الأغانى فتكلم على لهو الخلفاء وتبذيرهم وترفهم ، تكلم على أشياء مخفيّة ، فكان همّه أن يدخل قصور الخلفاء ويسمع بأذنيه ما يتساقطونه من الأحاديث ، ويرى بعينيه منازل الجوارى والقيان والمغنيات من قلوبهم ، فكان له نزعة خاصة إلى أشباه هذه الأخبار حتى يعلم الناس بما يجرى فى قصور خلفائهم وأمرائهم وعمالهم ، وحتى يطلعهم على أمور تذهب بكل هيبة وبكل حرمة ، فإذا كانت غايته ما أشرت إليه فلا شك فى أن فضله عظيم ، فقد نبه الأذهان على أمور

---

(١) « الأغانى » ج ٢٠ ص ١٣٢

كانت عنها غافلة ؛ والخلاصة فقد حرّض الناس على حرية الحكم والرأى .

وكما شارك أبو الفرج الأصبهانى فى عصره من أكثر النواحى فقد شاركه من الناحية الأدبية . ومن رجع إلى آرائه فى النقد المبثوثة فى أضعاف كتاب الأغانى استطاع أن يدرك مدى هذه المشاركة ، فقد كان إماماً من أئمة النقد فى الأدب أولع بتتبع الشعراء حتى يعرف مصادرشعرهم ، كما أولع فى الحياة بتتبع الخلفاء حتى يعرف أسرار حياتهم ، فقد تعقب أبا العتاهية وأبا نواس وأبا تمام والبحترى ، ولكنه كان يميل إلى الاعتدال فى نقده ويكره الإسراف .

أما رأيه فى قضية القديم والحديث فهو رأى ظاهر ، فقد كان يجرى مجرى الزمن ولا يجمد على حال ، فهو يعلم أن لكل عصر أطواراً وأن الشعر ينبغى له أن يتبع هذه الأطوار ، من ذلك رأيه فى شعر ابن المعتز ، فإنا نرى أبا الفرج فى هذا النوع من النقد صاحب مذهب ، فهو من المجددين الذين يرون لكل عصر أحوالاً خاصة فى الذوق والشعور ؛ ورأيه فى ذلك رأى أكابر رجال الأدب واللغة أمثال ابن قتيبة وابن فارس ومن هم فى طبقتهما ، فإن رجلا مثله يعيش فى عصر زهت فيه حضارة بنى العباس لا يمكن أن يعدل عن شعر يشتمل على هذه الحضارة إلى شعر يصف البيد والمهامه والظبى والظليم والناقة والجمل وأمثال هذا كله .